



بسم الله الرحمن الرحيم
وزارة الرعاية والضمان الإجتماعي
مركز ثقافة التنمية الاجتماعية



المنتدى الدوري

برعاية :
وزير الدولة بوزارة الرعاية والضمان الاجتماعي

ورقة

جدل الهوية السودانية والوحدة الوطنية

إعداد وتقديم :

د. مصطفى محمد أحمد الصاوي

ديسمبر ٢٠١٠م

مقدمة : -

تسعى هذه الورقة لمعالجة موضوع إشكالي قديم جديد ، شغل السياسة طويلاً ، وكذلك علماء الاجتماع ، وهو مرتبط بشكل جوهري ببناء الوطن وكيانه السياسي خاصة في قطر مثل السودان مترامي الأطراف به كيانات متعددة لذا كانت (موضوعة) الهوية الثقافية ((موضوع مهم بين الباحثين بمختلف اتجاهاتهم ، وتعد منطلقاتهم خلال القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين أكد الكتاب الأوربيون الانتماء العربي للثقافة السودانية ولكن بتقدم الدراسات في حقول علم الاجتماع ، والأجناس ، وما تبعه من اكتشافات أثرية اقنع بعضهم بوجود مؤثرات غير عربية .. وتابع الكتاب السودانيون هذا النقاش عن هويتهم)) ومن هؤلاء : مدثر عبد الرحيم في العروبة والأفريقية والانتماء في السودان "١٩٧١" ، وعبد الغفار محمد احمد في (نقاش إطار افريقية السودان وعروبته "١٩٨٨") ، وعبد الهادي الصديق في (الحزام السوداني "٢٠٠٥") ، ومقال نور الدين ساتي : (المكونات الثقافية للأمة السودانية) بمجلة الثقافة السودانية "١٩٨٠" ، وغيرها كثير ، عطفاً على ما سبق فإن هذه الورقة سوف تعني بتعريف مفهوم الهوية ، ثم تشير لأهم مدارس واتجاهات الهوية السودانية بالقدر الذي يمكن من تقديم رؤية صوب آفاق الوحدة الوطنية مع التعويل على إبراز بعض التجليات الأدبية لمفهوم الهوية.

مفهوم الهوية (الهوية في اللغة) :

تتداخل مفردة الهوية مع عدد كبير من المفاهيم وذلك بسبب مجالات استخدامها في حقول معرفية شتى مثل السياسية ، علم النفس ، المنطق ، الفلاسفة ، وعلم الاجتماع مما يستوجب البحث عن جذر المفردة وتطويعها دون الابتعاد كثيراً عن المعنى ، ففي المعجم الوسيط تعني حقيقة الشيء ، أو الشخص الذي تميزه عن غيره ، ويشير المعجم الوجيز إلى الهوية تعنى الذات ، ويشق المعنى اللغوي للهوية من الضمير (هو) الذي يشير إلى الذات ، وحينما يعرف بلام التعريف يؤدي معنى (الاتحاد بالذات من حيث تشخصه وتحققه في ذاته وتمييزه عن غيره) وفي سياق آخر تجئ عند الفلاسفة (هوية) وهي منسوبة إلى هو في مقابل الآخر أو الغيرية ، وتعني في كتاب التعريفات لدى (انجرحاني) ((الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق إشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق)) وفي القاموس الفلسفي تعني ما يعرف الشيء في ذاته دون اللجوء الى عناصر خارجية لتعريفه ، وتجيئ بمعنى الجوهر والماهية ، وهي عند المتصوفة تعنى الحق المطلق الذي يتضمن كل الحقائق ، وفي العربية المعاصرة تشير إلى (البطاقة الشخصية) التي يعرف بها حاملها .

المعنى الاصطلاحي للهوية : -

تشير الهوية في هذه الورقة إلى وعاء الضمير الجمعي لتكتل بشري محدد بما يتضمن من قيم ، وعادات ، وسمات وقسمات يتميز بها وتعطيه تفرد ، ويمكن الاستئناس بتعريفات اصطلاحية أخرى حيث يشير ألكس ميكشيللي (عبارة عن تركيب من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية والذاتية المُصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي) ، ويرى تركي الحمد إن الهوية (ممارسة وسلوك قبل ان تكون تصوراً ذهنياً ومن خلال الممارسة تكون الهوية .. نعم هناك سمات عامة لكل هوية ولكن هذه السمات تكتسب من خلال تفاعل الجماعة وليس من خلال التركيز والانتقاء لعناصر دون أخرى من عناصر الهوية) .

خصائص التعريف : -

- لا وجود لشعب بدون هوية .
- الهوية كيان تتصهر فيه جماعة متجانسة بخصائص مشتركة ومشاعر الانتماء حيث تتولد جملة من المعايير والرموز والصور .
- ترتبط الهوية بمؤثرات داخلية وخارجية ، والصراعات على السلطة وتتغذى الهوية بالتاريخ والجغرافيا .
- مكونات الهوية الإنسانية تتجسد في علاقات متضامه مثل المجال الجغرافي ، والوطن المشترك ، واللغة والموروث الشعبي بما يحتوى من أساطير وحكايات شعبية وسير وبطولات وروايات شفاهية وذاكرة إضافة لمنظومة من الحقوق والواجبات المشتركة ورؤية للكون والآخر .

مفهوم الهوية الثقافية السودانية : -

- لا يمكن النظر إلى الهوية الثقافية السودانية دون سؤال التاريخ الثقافي الذي يشير إلى (الصورة المتكاملة للأحداث الثقافية التي ظهرت خلال فترة زمنية) على هذا فان كل تلك الفترات قد ساهمت في تشكيل هوية هذا البلد الثقافية وعبر كل تلك الحقب التاريخية (عمر الإنسان ارض السودان منذ طفولة البشرية الأولى ، وترك لنا العديد من بصمات وجوده في مناطق مختلفة ، وشاركوا الأمم القديمة في عمارة الأرض) وتتالت الحقب سودان كوش بمراحله المختلفة ، ثم مروى ، والنوبة ، والفونج ، والحكم التركي ، والثنائي وصولاً للأنظمة الوطنية فالهوية وفقاً لما سبق مسيرة تشكل عبر تلك الحقب التاريخية .
- وعلى مستوى آخر في سؤال الهوية فإن الهوية الثقافية للسودان نابعة من أعماق تلك الذات عبر حقيقتها التاريخية ، ومجموعاتها العرقية ولغاتها وأواصر التاريخ والتفاعل فإذا كانت الهوية للأفراد والأمم هي ما يجعلها متميزة بملامحها عن الآخرين فان هوية السودان الثقافية تستند في وحدتها

على تنوعها إذا أريد لها التكامل والاكتمال دون إقصاء أو تهميش لطرف من الأطراف .

- ويبقى سؤال أخير في هذا الجزء هو سؤال (بوتقة الانصهار) الذي يجب ان يتم بشكل تفاعلي لا قسري ، وان يكون ثنائي الجانب لا أحادي وتعوزه هوية وطنية تنهض على استيعاب الهويات الدينية المختلفة ، ثم العرقية ، واللغات ، والعادات والتقاليد والاحترام المتبادل وممارسة الحقوق الثقافية كاملة غير منقوصة .

مدارس البحث في الهوية السودانية : -

١. المدرسة التاريخية : وترى أن أي حدث تاريخي رئيسي هو بمثابة حقبة ثقافية جديدة والتي لا تلغي الثقافة السابقة لكنها تمثل القوة الجديدة .
٢. المدرسة السودانية: وتؤمن بالتنوع ، وتؤمن بالتنوع الثقافي ، والاستمرارية الثقافية في السودان هما من أهم العوامل التي تقرر طبيعة وتطور الهوية الثقافية السودانية .
٣. المدرسة الانثروبولوجية : وتؤمن بأن الثقافات السودانية متساوية في مقدراتها وفرصها .

أطروحات بصدد الهوية : -

من الجدل الطويل الذي دار حول الهوية منذ تفتح الوعي الثقافي والنضج السياسي وفي أثر نيل الاستقلال السياسي برزت اطروحات عن مفهوم هويتنا طرحها أباكار الخريجين ، ودارت حوارات وجدل في مجلتي الفجر والنهضة واستمر هذا الجدل حتى الآن ، ويمكن ان نشير إلى هذه الاطروحات وهي :

١. نيار عربوي : -

رائد هذا التيار هو الشيخ عبد الله عبد الرحمن الضير الذي نشر كتاب (العربية في السودان) عام ١٩٢٢م ، حيث قال : وجدت هذه الأمة السودانية ترتبط مع الأمة العربية بروابط قوية وتمت إليها بصلة ديناً ولحمة نسبية وتتنزل منها منزلة الفرع من أصله والشبل من ليثه ويمضى في إثبات عروبة السودان مركزاً على الموروث الثقافي من عادات وتقاليد

وأمثال وزبي وزينة وقائمة مفردات يردها جميعاً إلى أصل عربي ويغفل في ذات الوقت عن البعد الإفريقي وجاراه في ذلك المؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم في كتابه (نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والاجتماع الذي أورد في سياق حديثه عن الشعر في السودان) ، (الخيال القومي في هذا الباب يستمد أوصافه وتشابيهه غالباً من الأدب العربي القديم فالمرأة هي الظبية في المهابة وهي القمر) ، ويمكن أدراج البروفسير عون شريف قاسم في هذا التيار في كتابه (قاموس اللهجة العامة في السودان) بقول (هذه محاولة أفدت فيها فائدة كبيرة من جهود العاملين قبلي هيللسون والشيخ عبد الله عبد الرحمن) على الرغم من اختلاف عون الشريف قاسم قليل عن أستاذه إذ يشير إلى اللغات السودانية لكنه يعول على رد الكلمات إلى أصول عربية وهذا التيار ممتد ومستمر وهو في جوهره يغفل المكون الإفريقي في الموروث السوداني ، فقد ارجع بابكر بدري في كتابه بعض الأمثال السودانية إلى جذور عربية ، وكذلك فعل محمد متولي وهو يكتب عن أمثال النوبة .

٣. تيار أفريقي عربي :

وهو تيار توفريقي ، ويقول هذا التيار بان السودان قطر عربي أفريقي وان العناصر الأفريقية والعربية تجد تمثيلاً في ثقافة السودان الشمالي وأنصع نموذج لهذا ما دونه البروفسير سيد حامد حريز الذي طبق اطروحته على الحكاية الشعبية عن الجعليين وتوصل الى (إن مجموعة ضخمة من المعتقدات الأفريقية تنعكس في هذه الحكايات مثل المعتقدات المرتبطة بالعالم السفلي ، وآلهة النيل ، وكذلك أشار إلى قصص الغريب الحكيم التي انتشرت حيث نشأت الممالك الإسلامية في السودان (الفونج - المسبعات - سنار) والتي ياوي إليها زعيم أو ملك أفريقي عربياً ، ويحسن معاملته ويجلب ذلك العربي معه علماً وديناً ويتم زواجه من ابنة الملك ثم يرث الملك مستفيداً مما كان سائداً من نظام اجتماعي فيه الوراثة من جهة الأم ، ومن الذين ساروا في ذات التيار د.

أحمد المعتصم في دراسة (الملاحم الأفريقية في الحكاية الشعبية عند الرباطاب) .

٣. التيار الأفريقي :

يرجع هذا التيار إلى ثلاثينيات القرن الماضي وبدأ في مجلة الفجر ففي العدد رقم (١٩) ١/٥/١٩٣٥م كتب كاتب (إننا معشر السودانيون نتذوق الفن الأفريقي أكثر من الإنجليزي) وصدرت في عام ١٩٤٨م مجلة أفريقيا أسسها د. محمد ادهم اهتمت بزواج الولايات المتحدة ، وحروب التحرير والشخصيات الأفريقية وبايجاز ساهمت هذه المجلة في التنبيه للثقافة الأفريقية ورموزها .

شكل هذا التيار ملمحاً ثقافياً يعني بالبحث والتنقيب في كل ما هو أفريقي بحثاً عن الهوية ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى مؤلفات جمال محمد احمد (عرب وأفارقة) و(وجدان أفريقيا) و (مطالعات في الشؤون الأفريقية) و (المسرحية الأفريقية) ومن مسلمات هذا الاتجاه أو التيار أن أفريقيا هي ارض الحضارات الإنسانية .

٤. الوحدة والتنوع والسودانية : -

لقد ساهم كثير من الباحثين في إرساء مفاهيم للهوية بالسودان ، مثل محمد عمر بشير ، و احمد الطيب زين العابدين والأول انطلق من مفاهيم ايدولوجية ، والثاني استند على منحي تاريخي ثقافي ، فمفهوم الوحدة في التنوع يرادف السودانية لكن د. أحمد إبراهيم أبو شوك صنف ما سبق إلى ثلاثة تيارات أساسية وسماه التيار التوفيقي في دراسة عن الهوية بالسودان إلى : -

- تيار الدولة الوطنية والتنمية
- تيار الهوية والديمقراطية
- تيار مزاجية الهوية والمواطنة

وتبقى الهوية الثقافية بالسودان دالة على إشكاليات عديدة ومسار جدل طويل وليس من حل سوى الحلول الثقافية كما وضح الطيب زين العابدين إذا اعتمد في نظرتة

على مجمل النتاج الثقافي السوداني (الثقافة السودانية من داخلها حيث لا تعتمد على الانتشارية التي تعتبر الحضارة السودانية امتدادا لحضارات أخرى مجاورة ، إنما هي مكون مختلف ومستمر .. وهي مكونة من ثلاثة شعب سودانية أولاً هي تراث نازل ومستمر من أقدم العصور ، تأثر بتيار آخر دائم الأثر والتدخل هو التيار الأفريقي الأقدم ثم التيار الآسيوي العربي وهو قديم هو الآخر وكلها تصب في مجرى الهوية الثقافية السودانية واعتبر أن هناك أعمال ساهمت في سد فجوات الثقافة السودانية قصد بها تأصيل السودانية مثل كتاب الساقية لرامي سليم وكتاب اللوح ليوسف فضل وأضيف كتاب المسيد للطيب محمد الطيب وهي كلها معالجة للحضارة السودانية كاتصال ثقافي وتراث نازل) .

الهوية والأدب : -

إن البحث عن الهوية لم يشغل علماء الاجتماع والتاريخ والفلكلور فقط بل اهتم به الأدباء بالسودان منذ عصر النهضة الأدبية في الثلاثينيات من القرن الماضي ، ومثل محمد عشري الصديق وحمزة الملك طمبل الذي نادى بإبداع سوداني أصيل يعبر عن روح الأمة وعلى ذات المنوال كان شعر محمد مفتاح الفيتوري مهموماً بالأفريقية والنور عثمان أبكر ومحمد عبد الحي وتيار الغابة والصحراء التوفيقية ونجد هذه النزعة تتجلى في الرواية لفرنيسس دينق في (طائر الشؤم) و (بذرة الخلاص) ، ومكي محمد علي في (أحزان النهر والغابة) وإبراهيم اسحق في (أخبار البنت مياكايا) والذي استهدف في متخيله الروائي العلاقات في مناطق التماس بين العرب والأفارقة وفي كل وعي مغاير بالهوية وجدت لها تجليات متعددة على مستوى الإبداع الأدبي .

سؤال الهوية وتجاوز الأزمة : -

والسؤال الجوهرى بعد العرض السابق ما مدى إمكان إيجاد هوية سودانية تجمع ولا تفرق ، وتستوعب تنوع وتعدد أهل السودان وتاريخه الثقافي بكل مكوناته .

باتفاق العديد من العلماء فان التعددية قدر أهل السودان ، وهي أساس النسيج الثقافي السوداني . وفي هذا الصدد يشير الباحث عباس الحاج في ورقة قدمها

بالمركز الاستراتيجي للتأهيل المجتمعي موسومة بـ (القواسم المشتركة : مدخل للوحدة الوطنية) :

إن كل التصنيفات الاثنية الموجودة في أفريقيا موجودة وممثلة في السودان عدا قبائل الأقزام ، أيضاً من الناحية اللغوية نجد كل لغات أفريقيا .. وان غالبية القبائل العربية التي وصلت إلى السودان أثرت إلى حد كبير في استقراره وفي نشر الثقافة الإسلامية ولكنها إلى حد كبير أفرقت (تأفرقت) في ما خلا قبيلة الرشايدة ، أضف إلى ذلك التاريخ الثقافي الثر الذي تضمن الممالك المسيحية ، ودولة سنار ذلك المزيج العربي الإفريقي وبعده الإسلامي ومؤثرات حضارية سابقة في القدم رومانية ، يونانية ... الخ ، يمكن توظيفها في إرساء قواعد الدولة الوطنية اتكاءً على الموروث الحضاري والثقافي .

أما عناصر الوحدة ، وتحقيق الهوية الثقافية فهي جماع لعناصر تراثية ، وتاريخية ، وسياسية ويمكن الإشارة إليها باعتبارها من مكونات الهوية أصلاً :

١. الرقعة الجغرافية .
٢. وحدة الهدف والمصير .
٣. التاريخ المشترك .
٤. الدين والمعتقدات .
٥. اللغة (اللغة العربية ، العامية السودانية ، عربي جوبا) .
٦. العادات والتقاليد (النفير ، الشلوخ ، وكافة طقوس العبور) .
٧. مقتنيات الثقافة المادية .

ومن الآليات التي تعزز (الهوية) وتحقق الوحدة الوطنية :

أ- السياسات والتشريعات

ب- الأسرة

ت- التعليم

ث- الإعلام

ويجسد كل ما سبق البروفسير حريز في قوله (ضرورة التعامل مع الموروثات

الثقافية كمسألة أساسية تُقضي إلى الوحدة الوطنية) .

الخاتمة : -

في ختام هذه الورقة التي قصدت إثارة أسئلة أكثر من تقديم إجابات عجلي ومتعجلة نخلص إلى التالي : -

١. مفهوم الهوية مفهوم إشكالي ، يتقاطع مع حقول معرفية مختلفة لكنها في نهاية الأمر فكر ، وسلوك ، وممارسة اجتماعية ، ولا يتصور وجود شعب بدون هوية .

٢. الهوية الثقافية السودانية صورة متكاملة للأحداث الثقافية التي ظهرت عبر مراحل وحقب التاريخ المختلفة وصولاً إلى الآن .

٣. عطفاً على النقطة السابقة فإن مكونات الهوية الثقافية السودانية مصدرها : التنوع الثقافي ، والأثني ، والعرقي ، والديني ، واللغوي .

٤. حتى تتحقق الهوية الثقافية بمفهومها الأوسع والشامل يجب ان تتم بشكل تفاعلي لا قسري ، ثنائي الجانب ، لا أحادي وتعززها رؤية وطنية شاملة حتى تكتمل بوتقة الانصهار .

٥. عرضت الورقة لمدارس البحث في الهوية السودانية والتي جاءت من مناظير مختلفة تاريخية ، وانثربولوجية ، إضافة لمنظور الوحدة في التنوع (محمد عمر بشير) وريفي هذا المنظور (السودانوية) ثم أشارت للاطروحات التي تناولت القضية مثل التيار الأفريقي والتيار العربي ، والتيار التوفيقى بأنماطه المختلفة ، وعززت ما سبق بتقديم رؤية موجزة من خلال الإبداع الأدبي مدرسة الغابة والصحراء ، وإسهامات الشعر والرواية في معالجة موضوعة الهوية .

٦. وخلصت إلى سؤال الهوية ، وتجاوز الأزمة مقولة أن التعددية هي قدر أهل السودان ، ثم أشارت إلى القواسم المشتركة باعتبارها المدخل الأساسي للهوية .

الهوامش والإحالات : -

١. احمد محمد علي الحاكم ، **هوية السودان الثقافية من منظور تاريخي** : مطبعة جامعة الخرطوم ، بدون تاريخ ص ٧ .
٢. اليكس ميكشيللي ، **الهوية** ، دار الوسيم ، دمشق ١٩٩٣م ص ١٦٩ .
٣. تركي الحمد ، **الثقافة العربية في ظل العولمة** ، بيروت ١٩٩٩ ص ١٩ .
٤. هدى مبارك ميرغني ، **مدخل لدراسة الثقافة السودانية** ، مركز محمد عمر بشير أم درمان ١٩٩٩ ص ٣٦ .
٥. احمد محمد علي الحاكم ، **هوية السودان الثقافية** ص ١٠ .
٦. عبد الله عبد الرحمن الضرير ، **العربية في السودان** ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦٧ ، صفحة المقدمة .
٧. محمد عبد الرحيم ، **نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والاجتماع** ، شركة الطبع والنشر الخرطوم بدون تاريخ ص ٥٠ .
٨. عون الشريف قاسم ، **قاموس اللهجة العامية في السودان** ، ط ٣ ، الدار السودانية ٢٠٠٢م ص ١١ .
٩. سيد حامد حريز ، **الحكاية الشعبية عند الجعليين ، تداخل العناصر الأفريقية والعربية الإسلامية** ، ترجمة إسماعيل الفحيل وسليمان محمد إبراهيم ، دار الجيل ، ودار المأمون ، ١٩٩١م ص ١٤٣ .
١٠. انظر قراءة هدى مبارك ميرغني في **مدخل للثقافة السودانية** ص ٥٠ .
١١. **توظيف الموروث الثقافي لدعم الوحدة الوطنية** ، مقال لسيد حامد حريز ، مجلة وازا ، وزارة الثقافة والشباب ، عدد ١٥ ، يوليو ٢٠٠٨م ، ص ١١ .